سلسلة شروح المتون العلمية (٢)

التَّعْلِيق على

الأُرْجُوزَة في آدَابِ التَّعلُّم والتَّفقُّه

أوردها الإمام ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله

علَّق عليها فضيلة الشيخ

أبي مُحَمَّد حسن بن حامد

حفظه الله تعالى

مكتبة

مسجد الإمام البخاري

اللاماب-الخرطوم

سلسلة شروح المتون العلمية (٢)

التّعْلِيق على

الأرْجُوزَة في آدَابِ التّعلّم والتّفقّه

أوردها الإمام ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله

علّق عليها فضيلة الشيخ

أبي محمد حسن بن حامد

حفظه الله تعالى

مكتبة

مسجد الإمام البخاري

اللاماب -الخرطوم




بسم الله الرحمن الرحيم

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ — وَالْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ وَالتَّفَهُّمِ

وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ — فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ — لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ

لِسَانُهُ وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ — فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ

وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةِ — وَالدَّرْسِ وَالْفِكْرَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الْحِفْظَا — وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا

وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبُ — مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الْحُبِّ — لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ الْقَلْبِ

مُعَجَّزٍ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَةْ — لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةْ

وَآخَرٌ يُعْطِي بِلَا اجْتِهَادِ — حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ

يَهُذُّهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهِ — لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ

فَالْتَمِسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ — وَالْعِلْمُ لَا يَحْسُنُ إِلَّا بِالْأَدَبِ

وَالْأَدَبُ النَّافِعُ حُسْنُ السَّمْتِ — وَفِي كَثِيرِ الْقَوْلِ بَعْضُ الْمَقْتِ

فَكُنْ لِحُسْنِ السَّمْتِ مَا حَيِيتَا — مُقَارِفًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

وَإِنْ بَدَتْ بَيْنَ الأَنَامِ مَسْأَلَةْ — مَعْرُوفَةٌ فِي الْعِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلَةْ

فَلَا تَكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقًا — حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهَا نَاطِقًا

فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقْ — مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ بِالْخَطَاءِ نَاطِقْ

أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ — عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ — مَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ



فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَا ... كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا

وَالصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَا ... وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا

كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةْ ... فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةْ

الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ ... لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ

وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ قَدْ حَوَيْتَهُ ... أَجَلْ وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ

وَمَا بَقِي عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ ... مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ

فَكُنْ لِمَا سَمِعْتَهُ مُسْتَفْهِمَا ... إِنْ أَنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا

الْقَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْقِلُهُ ... وَآخَرٌ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ

وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابُ ... يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ

وَلِلْكَلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ ... فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

لَا تَدْفَعِ الْقَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ ... حَتَّى يُؤَدِّيكَ إِلَى مَا بَعْدَهُ

فَرُبَّمَا أَعْيَى ذَوِي الْفَضَائِلِ ... جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ

فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ ... عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ فِي الْقِيَاسِ ... مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ عِنْدَ النَّاسِ

إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبِ ... فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبِ

مُقَدِّمَة
فضيلة الشَّيخ
أبي محمد حسن بن حامد
حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد :

فمن جملة دروسنا في مسجدنا الحبيب مسجد الإمام البخاري باللاماب ناصر؛ الخرطوم – خلَّصها الله من رجس منافقي الدعم السريع – أن علقنا على كتبٍ ومنظومات عدة في آداب طالب العلم منها هذه الأرجوزة التي فرّغ تعليقاتنا عليها أخونا الفاضل أحمد مفتي أديب الإندونيسي – جزاه الله خيرًا – وقد نظرتُ فيها فحذفت وأضفت. والله الموفق لكل خير.

كتبه أبو محمد حسن بن حامد

السابع من رمضان ١٤٤٥ هـ

المدينة النبوية



تمهيد

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمَّدا عبده ورسوله . أما بعد:

فقد طلب مني بعض الفضلاء من طلبة العلم تفريغ دروس في «التَّعْلِيْق عَلَى الأُرْجُوْزَةِ فِي آدَابِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ» المضمنة في كتاب «جَامِع بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ» للإمام ابن عبد البرِّ رحمه الله؛ والتي قام بالتعليق عليها شيخنا الفاضل أبو محمد حسن بن حامد -وَفَّقَهُ اللهُ- في مسجد الإمام البخاري باللاماب؛ فأجبت ذلك الطلب مستعينا بالله عز وجل.

وقمت بوضع العناوين، وحذفت الكلام المكرر، وزدت بعض الزيادة لتستكمل الفائدة. أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجه الكريم. آمين

تَمَّ التفريغ

في رجب ١٤٤٢ هـ

كرسيك – إندونيسيا



مقدمة المجلس الأول

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد؛

فلما قرأت كتاب «جَامِعُ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ وَمَا يَنْبَغِي فِي رِوَايَتِهِ وَحَمْلِهِ» لحافظ المغرب؛ أبي عمر ابن عبد البر رحمه الله، هذا السفر الجليل المليئ بالفوائد التي يحتاجها كل مسلم فضلا عن طالب العلم. كان من جملة ما قرأته فيه ؛ هذه المنظومة. والتي انعقد عزمي على أن نقرأها على طلبة العلم، وعلى أن نعلق على مواضع منها، لنفاستها، وأهميتها.

وكتاب «جَامِعُ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ وَمَا يَنْبَغِي فِي رِوَايَتِهِ وَحَمْلِهِ» للإمام أبي عمر يوسف ابن عبد الله ابن محمد ابن عبد البر المتوفى سنة (٤٦٣) من هجرة النبي ﷺ كتاب نفيس، وممتع، ولا يمل المسلم من قرائته ؛ لأنه صنف لأهل العلم، علماء وطلابا. ففائدته عظيمة، وأرجو أن يكون هذا باعثا لطلبة العلم ممن لم يقرأ هذا الكتاب على شحذ الهمم لقراءته، والإستفادة منه.

وهذه الأرجوزة التي ضمنها ابن عبدالبر رحمه الله كتابه، ذكر أنها أرجوزة في آداب التعلم والتفقه. فموضوع هذا الرجز؛ هو آداب التعلم والتفقه.



فَضْلُ العِلْمِ وأَهْلِه

لا ريب أنكم تحفظون جملة وافرة مما جاء في الكتاب والسنة في فضل العلم وشرفه، وقرأتم تصانيف كثيرة، ومقالات متعددة في هذا الموضوع. لكن لا بأس أن نذكر بشيء مما جاء في القرآن والسنة في فضل العلم.

❐ **يقول ربنا** ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. [آل عمران: ١٨]

هذه الآية من أقوى الأدلة على فضل العلم، وقد دلت على فضل العلم من وجوه متعددة؛ كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله في كتابه «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَة»؛ من جملة هذه الوجوه:

- أن الرب ﷻ ضم شهادة أهل العلم إلى شهادته وشهادة ملائكته؛ وكفى بهذا شرفا. ولو كان من أفراد البشر، من هو أشرف من أهل العلم؛ لذكرهم رب العزة والجلال. فأشرف النوع الإنساني هم أهل العلم، وأشرف أهل العلم؛ الرسل والأنبياء.
- ومن الوجوه التي يستفاد منها فضل العلم من هذه الآية؛ أن الشاهد يشترط فيه أن يكون عدلا. ففي الآية تعديل من رب العزة والجلال لأهل العلم.

- ومنها أن الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استشهدهم على أجل مشهود، وهو توحيده؛ فأجل مشهود هو التوحيد.

❒ **وقوله تعالى :** ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.[طه : ١١٤]

يأمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه ﷺ أن يسأله المزيد من العلم؛ فلو كان في الدنيا ما هو أفضل من العلم ؛ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه أن يسأله المزيد منه. وهذا يدل على أن أشرف شيء في الدنيا هو العلم. وفيه : أن طالب العلم لا بد أن يضرع إلى ربِّه عَزَّوَجَلَّ دوما سائلا إياه العلم النافع ؛ لأن الذي يهب العلم هو الله رب العالمين.

❒ **وقوله تعالى :** ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.[المجادلة : ١٢]

ولم يقيد هذا الرفع بالدنيا، ففيه أن الرفعة في الدنيا والآخرة هي لأهل العلم. والأدلة كثيرة من القرآن على فضل العلم لا يمكن حصرها.

وأما أدلة السنة فكثيرة جدًا؛ منها ما ثبت عند أصحاب «السنن» عن النبي ﷺ أنه قال : «**الدُّنْيَا مَلْعُوْنَةٌ مَلْعُوْنٌ مَا فِيْهَا؛ إِلَّا ذِكْرُ الله وَمَا وَالَاهُ؛ وَعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا**»(١). هذه الدنيا التي هي دار الإختبار والإمتحان، ملعونة ومبغوضة إلى رب العزة والجلال؛ «**إلا ذكر الله وما والاه**»؛ أي

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٢) صحيح ابن ماجه (٣٣٣٦) وابن ماجة (٤١١٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٥٨٠) وصححه الألباني.



ما كان بسبب وصلة للذكر والطاعة «**وعَالِمًا وَمُتَعَلِّمًا**»؛ فما أخسر صفقة من لم يكن عالما أو متعلما.

ولهذا جاء في وصية أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لكميل ابن زياد التي شرحها ابن القيم في كتابه «مِفْتَاح دَارِ السَّعَادَة» : «**يَا كُمَيْل ابنِ زِيَادٍ؛ النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِي، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيْل نَجَاةٍ ؛ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُوْرِ العِلْمِ وَلَمْ يَلْجَأُوا مِنْهُ إِلَى رُكْنٍ وَثِيْقٍ**»[1].

ثم من جملة أسباب سلامة منهج الرجل؛ أن يكون عالما بالكتاب والسنة ومنهج السلف، أو أن يكون متعلما؛ فإذا لم يكن عالما ولا متعلما، سهل خداعه وسهل التلاعب به، وسهل أن يصير وقودًا لمغامرات الراغبين في الدنيا باسم الدين أو باسم الدنيا. إذا كان عنده علم وبصيرة لا يخدع؛ مهما زخرفت له الأقوال، وأثيرت عنده الحماسة، هذا عنده الآلة التي هي آلة اكتشاف الذهب من الصفيح !؛ يعرف معدن الذهب من البهرج.

ولا يكفي أن تقول : أنا متعلم، أو أنا من طلبة العلم؛ وليس لك سعي في طلب العلم ولا عمل في طلب العلم؟! الأمر ليس بالدعوى

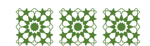
(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة – ط عطاءات العلم (١/ ٢٤٦) – ابن القيم – ت (٧٥١).

وليس بالألقاب. قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾. [الإسراء: ١٩]. فلابد من السعي؛ لابد من تغبير الأقدام في طلب العلم، لا بد من السهر في طلب العلم، وأن يكون هذا السهر ألذُّ لك من كل ما تلتذ به الأنفس في تحصيل مشتهاياتها.

سَهَرِيْ لِتَنْقِيْحِ العُلُوْمِ أَلَذُّ لِيْ من وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيْبِ عِنَاقِ

وهذا العلم لا بد أن يسلك الإنسان السبيل الذي رسمه العلماء؛ المستفيدون من القرآن والسنة ومن مناهج أهل العلم من السلف الصالح فمن جاء بعدهم ممن هو على طريقهم.

لأنك إذا اتبعت خطة مرسومة، وبرنامجا موضوعا، انتفعت واستفدت. أما إذا خبطت خبط عشواء في ليلة ظلماء؛ تتعب ولا تعود بطائل. فعليك أن تسلك الجادة التي رسمها أهل العلم.





ترجمة مختصرة للإمام ابن عبد البر رحمه الله

إنه إمام كبير، حافظ تتابعت كلمات العلماء في ذكر مناقبه، والثناء عليه. قال الحافظ الذهبي رحمه الله في [سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ] : «الإمام العلامة حافظ المغرب شيخ الإسلام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي القرطبي المالكي صاحب التصانيف الفائقة.

ولد سنة (٣٦٨) في شهر ربيع الآخر؛ وطلب العلم بعد التسعين وثلاث مئة وأدرك الكبار وطال عمره وعلا سنده وتكاثر عليه الطلبة وجمع وصنف ووثق وضعف وسارت بتصانيفه الركبان وخضع لعلمه علماء الزمان وفاته السماع من أبيه الإمام أبي محمد فإنه مات قديما في سنة (٣٨٠) هـ.

كان إماما دينا متقنا علامة متبحرا صاحب سنة واتباع وكان أولا ظاهريا فيما قيل ثم تحول مالكيا مع ميل لمذهب الشافعية في مسائل.

قال ابن حزم الظاهري رحمه الله «لَاأَعْلَمُ فِي الكَلَامِ عَلَى فِقْهِ الحَدِيْثِ مِثْله فَكَيْفَ أَحْسَنُ مِنْهُ؟». اهـ

مات أبو عمر رحمه الله يوم الجمعة في ربيع الآخر سنة (٤٦٣) واستكمل (٩٥) سنة وكان حافظ المغرب في زمانه كما أن الخطيب البغدادي حافظ المشرق ؛ ماتا في نفس السنة (٤٦٣) من الهجرة». اهـ



نسبة هذه الأرجوزة والثناء عليها

فهذا الإمام العالم يقول : «**وأَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ في آدابِ التّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ مِن النَّظْمِ مَا يُنْسَبُ إلى اللُّؤْلُؤِي مِنَ الرَّجَزِ وَبَعْضُهُمْ يَنسِبُهُ إلى المَأْمُوْن..الخ**». اهـ

أي لم يعرف على وجه التحديد صاحب هذا النظم؛ إما أن يكون اللؤلؤي، وإما أن يكون المأمون. أما اللؤلؤي؛ فهذه النسبة أشهر من نسب إليها هو الحسن ابن زياد اللؤلؤي صاحب أبي حنيفة.

وهناك أيضا ؛ أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي؛ فهو من جملة من روى سنن أبي داود عنه؛ أي من تلاميذ أبي داود السجستاني. وذكروا أنه قرأ سنن أبي داود عليه عشرين سنة.

وبعضهم ينسبه إلى المأمون؛ المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد؛ الذي خذله الله ﷻ فعرّب كتب اليونان، وأدخل الفلسفة على هذه الأمة، فأدخل بذلك على الأمة شرا عظيما. ثم تقلد عقائد المعتزلة ودعا إلى القول بخلق القرآن.

«الرَّجَز» : بحر من بحور الشعر، وهو من أسهلها؛ حتى عرف بحمار الشعراء؛ ولسهولته فإنه هو الذي تنظم به المنظومات العلمية غالبًا.



البيت (١)

قال الناظم :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ [١] وَالْحِفْظِ وَالإتقان وَالتَّفَهُّمِ

التعليق

قوله : «وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ» هذا جزء من حديث؛ عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال : «**إِنَّمَا العِلْمُ بالتَّعَلُّمِ وإنَّما الحلم بالتَّحَلُّمِ ومن يَتَحَرَّى الخَيْرَ يُعْطُى، ومَنْ يَتَوَقَّى الشَّر يُوقَى**».[١]

والتاء في «التَّعلم» للطلب؛ يعني أن العلم يحصل بالطلب. ومدار نيل العلم على توفيق الله ﷯، فقد تتعب في تحصيل العلم ولا ترجع بشيء. وقد يكون لك ذكاء ولا يشرح الله صدرك لحب العلم وطلبه. فتستعين بهذا الذكاء على ما فيه الضرر.

وقوله : «بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ» أي له أسباب ؛ بعد أن يوفقك رب العزة والجلال لعلم نافع.

ومن أسباب نيل العلم :

١) **السعي** في طلب العلم.

---

(١) أخرجه جماعة منهم الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وله طرق؛ وصححه العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم(٣٤٢).

٢) **العمل الصالح**؛ فالعمل الصالح والطاعات والإستقامة والبعد عن الذنوب والمعاصي من أعظم أسباب نيل العلم. قال الله ﷻ : ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.[الأنفال : ٢٩] ومن الفرقان؛ العلم.

٣) **أن يتقي العبد ربَّه** ﷻ؛ وذكر العلماء هنا البيت الشائع :

شَكَوْتُ إلى وكِيْعٍ سُوْءَ حِفْظِي ... فأَرْشَدَنِي إلى تَرْكِ المعَاصِي
وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْمَ نُوْرٌ ... وَنُوْرُ اللهِ لايُعطَى لِعَاصِي

٤) **جودة قريحة والفهم**؛ أي أن يكون الإنسان ذا فهم وعقل ونباهة.

٥) **الإتقان**؛ والإتقان هو الإحكام والتجويد؛ وهذا الإتقان والإحكام يتمثل في إحكام قواعد العلم. فكل علم له أصول وقواعد، فلا بد أن يجمع بين إحكام أصول العلم وبين حفظ جملة صالحة من هذا العلم، مع الفهم ومع القدرة على التعبير عن هذا العلم.





البيت (٢)

قال الناظم :

والعِلمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيْرْ [٢] فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الكَبِيْرُ

التعليق

قال : «قَدْ يُرْزَقُهُ»؛ فيه أن العلم رزق؛ وهو رزق معنوي. فالرزاق هو الله ﷻ، هو الذي يوزع الأرزاق المعنوية والحسية.

وقوله : «يُرْزَقُهُ الصَّغِيْرُ» ؛ فيه أن الأغلب أن الصغير إذا وُفق إلى طلب العلم منذ صغره؛ فإنه ينبل وتكون علومه محررة متقنة واسعة. ولهذا ذكروا : «الحِفْظُ في الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ»[1].

فقد يعطاه الصغير ويحرمه الكبير، وقد يحرمه الصغير ويعطاه الكبير. وإذا عرفت أن الكبير قد يعطى العلم، فهذا من أعظم البواعث على طلب العلم للكبار.

ولهذا فإن البخاري رحمه الله في «صحيحه» في [كتاب العلم] بوَّب: «وتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُوْلِ الله ﷺ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِمْ»[2]؛ من هو أعلم الأمة بعد رسول الله ؟ أبـــو بكر ؛ وهل تعــلم أبو بكر كبيرا أوصغيرا ؟

---

(١) مجمع الزاوئد ومنبع الفوائد- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي – (١/ ١٢٥).

(٢) صحيح البخاري – ط السلطانية (١/ ٢٥) – باب الاغتباط في العلم والحكمة.



تعلم العلم كبيرًا.

فكم من كبير في العمر؛ طلب العلم على كبر ، فحصَّل علوما كثيرًا. وأيضا؛ الإنسان لا يترك طلب العلم، حتى لو صار كبيرا؛ فإن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول : «مَعَ المَحْبَرَةِ إِلَى المَقْبَرَةِ»(١).

فإن التقدم في العمر لا يمنع من طلب العلم؛ لكن يحتاج إلى اجتهاد، وإلى تعب، بعد توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ.

ذَرِيْنِي أَنَلْ مَا لَا يُنَال مِن العُلَا فَصَعْبُ   العُلَا فِي الصَّعْبِ والسَّهْلُ فِي السَّهْلِ

تـُرِيْدِيْنَ لُقْيَـانَ المَعَـالِي رَخِيْـصَـةً   وَلَابُدَّ دُوْنَ الشَّهْـدِ مِن إِبْرِ النَّحْـلِ

❁❁❁

(١) مناقب الإمام أحمد (١/ ٣٧) – ابن الجوزي ت (٥٩٧).



البيت (٣-٤)

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ [٣] لَيْسَ بِرِجْلَيْهِ وَلَا يَدَيْهِ
لِسَانُهُ وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ [٤] فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ

التعليق

قوله : «الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ»؛ هذا من أمثال العرب، ما المراد بأصغريه؟ فسرهما الناظم، فقال :

لِسَانُهُ وقَلْبُهُ المَرَكَّبُ ... فِي صَدْرِهِ وذَاكَ خَلْقٌ عَجَبُ

يعني القلب واللسان من أعاجيب خلق الله ﷻ، فإنهما صغيران، لكن الإنسان يعتبر بهما؛ أي يوزن بهما. والمعنى المراد من قوله : «وَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ» يعني قيمته؛ تبعا لهذين الأصغرين. فإن كان قلبه واعيا ذكيا وكان لسانه مخزونا إلا عن الخير، فهذا ترتفع منزلته.

وإذا كان قلبه بليدا وفهمه ضعيفًا بطيئًا؛ وقلبه معلق بالدنيا، وبالهوى ولسانه قد أطلقه بلا قيد من شرع ودين؛ فهو يتكلم جاهلا ، فقلبه أمام لسانه وليس وراء لسانه، ولا ينظر للعواقب؛ فهذه مصيبة.

فكل مكلف في الغالب رزقه الله ﷻ الفهم والعقل والمنطق. ولهذا لما تكلم عن العلم ذكر أن للعلم مبدأ وله منتهى. فمبدأ العلم الفهم والتصور، ومنتهى العلم المنطق والتعبير عن هذا العلم.



وذكر الناظم هذا البيت؛ لبيان أهمية ومنزلة القلب واللسان، لأنهما اللذان يبنى عليهما العلم؛ تحصيلا وتمكنا ورسوخًا ونشرًا.





البيت (٥)

وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةِ [٥] وَالدَّرْسِ وَالْفِكْرَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ

التعليق

الآن ذكر لك بعض أسباب العلم؛ ينال العلم «بِالفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةِ ... وَالدَّرْسِ والفِكْرَةِ وَالمنَاظَرَةِ». إذًا؛ من جملة شروط العلم، وأسباب نيله الفهم؛ الذي يكون بالقلب. والناظم قال «لسانه وَقَلْبُهُ الْمُرَكَّبُ» فهو يختار أن العقل في القلب؛ نعم، والصواب أن العقل في القلب وله اتصال بالدماغ. وفي النظم المشهور :

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ سَأُنْبِيْكَ عنْ تفْصِيْلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ واجْتِهَادٌ وبُلْغَةٌ وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُوْلُ زَمَانِ

ذكاءٌ؛ وهذا هو الفهم، فالأصل في تحصيل العلم على وجود الفهم والعقل ثم يأتي بعده؛ الحفظ. ومن مراتب نيل العلم بعد الإستماع؛ الفهم والعقل، وربما أطلق على الفهم عقلا. لأن العقل ينال به الإنسان المعلومة؛ يعقلها ويربطها ويحوزها.

وبعض الناس قد لا يكون له ذكاء باهر، لكن يفتح الله ﷻ له؛ فينال العلم ويرفعه الله ﷻ به.

أنا سمعت الشيخ محمد سالم بن عبد الودود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاضرته عن «أهمية الوقت» يقول : «إن طالب علم من موريتانيا [بلاد شنقيط]، أراد أن يطلب العلم إلا أنه اشترط في الشيخ الذي يتلقى عنه العلم أن لا يفتح كتابا. قال : فكان كلما أُخبر عن عالم فقال : أريد أن أطلب العلم عندك؛ قال : فإذا أخذ كتابا تركه. فلما رأوا شرطه قالوا : بغيتك في رجل يعمل في حمل الملح على الإبل وبيعه. فذهب إليه؛ وقال له : أريد أن اطلب عندك العلم، فقال له : استعن بالله. قال : ما فهمت. قال : أريد أن أطلب عندك العلم -مرة ثانية-. قال استعن بالله ؛ -المرة الثالثة-؛ قال له : استعن بالله؛ إقرأ الكتاب الذي معك !؛ قال : فأخذ «مُخْتَصَرَ خَلِيْلِ»، وجعل يقرأ عليه منه، وهذا يمشي يحمل الملح ويعلق له على «مختصر خليل» ويأتي بعلوم جمة، وفوائد مهمة ؛ فتعجب من قوة هذا العالم وسأله عن سر تمكنه في العلم. قال : «مختصر خليل» أقرأ المتن ألف مرة، وأقرأ الشرح مائة مرة؛ فرسخ العلم في قلبي». اهـ

قالوا : هذا الرجل لم يكن معروفا بالذكاء؛ السر هو التكرار.

قال : «وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكَرَةِ» أيضا العلم ينال بالمذاكرة؛ وهذه المذاكرة لا تكون مع النفس في الغالب.



فالمدارسة هي التي تكون مع النفس؛ أما المذاكرة فتكون مع طالب علم أو اثنين. فالظاهر أنه لا ينبغي أن يُكثر ممن يذاكرهم.

قال ﷻ : ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾؛ [سبأ : ٤٦]؛ إنما أمرهم أن يقوموا مثنى وفرادى؛ أي -في قلة عدد-؛ لأن الكثرة توجب من التنازع وارتفاع الأصوات واللغو؛ ما لا يحصل معه المراد.

فالمذاكرة أن تتباحث مع طالب علم أو اثنين أو ثلاثة؛ فتبحث معهم بعض مسائل العلم. مثلا؛ سندرس باب الطهارة من كتاب «بلوغ المرام»؛ فطلبة العلم يجتمعون ويقرؤون أحاديث الباب الذي سيدرسونه مع شيخهم. بعد أن يقرؤوا هذه الأحاديث، يبدأ كل طالب علم يذكر ما يستفاد من هذه الأحاديث من غير مطالعة شرح. أو ربما بعضهم يخوضون فيما استنبطوا بالفحص في صحته وعدم صحته، ووجاهته، وعدم وجاهته ثم ينظرون بعد ذلك في الشرح، ماذا يقول؛ حينما يأتون الدرس، يأتون ولهم فهم واستيعاب لما سيلقى عليهم. فإذا وجدوا فائدة من تقرير الشيخ وإلقاءه، قيدوها. ثم يتذاكرون ما درسوه بعد انتهاء الدرس.

فالمذاكرة لها فوائد منها :

- أن صاحبها مع النية يؤجر؛ لأنها من باب التعاون على البر والتقوى.

- أن المذاكرة سبب في رسوخ العلم عند الطالب.
- أن مذاكرة العلم تكون سببا في الازدياد من العلم. فإن الحديث يهيج الحديث، والفائدة تهيج الفوائد؛ فيزدادون فوائد بهذه المذاكرة.
- أن يستعين بالمذاكرة على حسن التعبير عن العلم.

وقال الناظم:

مَنْ حازَ العِلمَ وذاكرهُ   صلُحتْ دُنياهُ وآخرتُهْ

فأدِمْ للعِـــلم مُذاكرةً   فحيَاة العِلم مُذَاكرتُهْ

قال النووي رحمه الله: «مُذَاكَرَةُ حَاذِقٍ فِي الفَنِّ سَاعَةً أَنْفَعُ مِنَ الْمُطَالَعَةِ وَالحِفْظِ سَاعَات؛ بَلْ أَيَّام»[1]؛ مذاكرة حاذق يعني متقن مستفيد.

وقال: «والدَّرْس والفِكْرَة والمنَاظَرَة» أيضا ينال العلم بالدرس؛ وهذا الدرس قد يكون مع النفس بالمراجعة وبالتوسع والنظر في المراجع. يعنى؛ عندما ترجع بعد الدرس عند شيخك إلى بيتك، ثم تنظر فيما درسته مع نفسك وتراجع المراجع الكبيرة التي تذكر فيها فوائد زائدة على ما أخذته من شيخك. وعلى الطالب أن يلازم المراجعة بعد دروسه مع شيخه.

ثم قال: «والفِكْرَةُ»؛ وأصل الفكر هو أن تردد المســــــائل في

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٤٦).

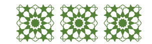


خاطرك وذهنك حتى تستفيد علوما جديدة بالنظر إلى المسألة المعينة.

قال ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. [آل عمران : ١٩١].

فالتفكر يكون في الآيات، المشاهدة بالأبصار، ويكون كذلك بالتفكر في مسائل العلم؛ بأن تردد مسألة من العلم في ذهنك وأن تستنبط وأن تستخرج بهذا التفكر علومًا زائدةً على ما استفدته فيها.

قال : «وَالمَنَاظَرَةِ» كذلك من أسباب نيل العلم المناظرة؛ وهذه المناظرة عرفها بعضهم بأنها : أن يتراجع شخصان الكلام ويقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه مع رغبة كل منهما في ظهور الحق؛ ولا يريدان الغلبة والإنتصار للنفس. ويراد بهذه المناظرة؛ المناظرة العلمية بين الطلاب؛ ليست بين الخصوم والأعداء؛ يعني بين طلاب العلم.



البيت (٦-٩)

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الْحِفْظَا [٦] وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا

وَمَــا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبٌ [٧] مِمَّــا حَــوَاهُ الْعَـالِمُ الْأَدِيبُ

التعليق

قوله : «فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحفظا»؛ بعض الناس قد يعطى ذاكرة قوية؛ لكن لا يكون عنده كبير فهم ومعرفة. وهذا موجود؛ بعض الناس يُرزق حفظا؛ لكن ليس عنده فهم، وليس عنده قدرة على الإستنباط والتفريع على ما حفظه.

ولهذا ذكر الشيخ ابن عثيمين ﵀ أنه وجد رجل من الحنابلة كان يحفظ كتاب «الفروع» لابن مفلح حفظًا متقنًا؛ لكنه لا يحسن شيئا؛ فكان يلقب بحمار الفروع[1]. -فهو كالحمار يحمل أسفارا- يحفظ الفروع حفظا جيدا، لكن لا يستطيع أن يستنبط وأن يفرع وأن يستخرج الفوائد وأن يذكر القيود والضوابط.

قال : «وَيُوْرِدُ النَّصَ وَيَحْكِي اللَّفْظَا»؛ هذه إشارة إلى متانة حفظه. فإنه يذكر النص المحفوظ بلفظه.

قال : «ومَالَه في غيْرِهِ نَصِيبٌ ... مِمَّا حَوَاهُ العَالِمُ الأدِيْبُ»؛ والعالم

(١) شرح حلية طالب العلم للشيخ بكر أبو زيد وشرحه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُمَاٱللَّهُ



الأديب هو المجتهد؛ وهو العالم الذي عنده قدرة على أن يفتي في النوازل اعتمادًا على النصوص لما عنده من آلات الإجتهاد؛ ومن أعظمها جودة القريحة والفهم.

* * *

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الحُبِّ [٨] لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ الْقَلْبِ
مُعَجَّزٍ فِي الْحِفْظِ وَالرِّوَايَةِ [٩] لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةٌ

يقول : يوجد كذلك من عنده حب شديد للعلم إلا أنه بليد. والبليدُ هو بطيء الفهم؛ وهو ضعيف الذكاء، ليس عنده قدرة على الحفظ ولا حسن فهم للعلم. كما في [لسان الميزان] لابن حجر : قيل لأشعب؛ طلبت العلم وجالست الناس ثم أفضيت إلى المسألة، فلو جلست لنا وسمعنا منك فقال : سمعت عكرمة يقول : سمعت ابن عباس يقول : سمعت رسول الله ﷺ : «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن...» ثم سكت؛ فقالوا : ما هما ؟ قال : نسي عكرمة واحدة ونسيت أخرى.[1] ؛ وبعضهم يطعن في ثبوت هذه القصة.

(١) انظر «لسان الميزان» لابن حجر العسقلاني ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت (١/ ٤٥١).

مقدمة المجلس الثاني

جاء عن بعض أئمتنا أنه قال : «قُوْلُوا لِمَنْ أَرَادَ أَن يَطْلُبَ الحَدِيْثَ أَنْ يَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِنْ حَدِيْدٍ»[١]. هذه إشارة إلى أن من رام طلب العلم أو الحديث فإنه يحتاج إلى الرحلة في طلبه؛ وقد لا يتسنى له أن يجد ما يكفيه من نفقة؛ فربما احتاج أن يمشي على قدميه.

وأنصح بقراءة ما ذكره ابن أبي حاتم ﵀ في [تقدمة الجرح والتعديل]؛ عن أبي حاتم وشيخه أبي زرعة ومن معهما من الحفاظ الذين كانوا يرحلون من بلد إلى بلد لطلب العلم على أقدامهم؛ وأنهم عانوا في سبيل ذلك متاعب شديدة.

العلماء قالوا : «مَنْ طَلَبَ الرَّاحَةَ لَمْ يَمْلَأْ الرَّاحَة» [٢]؛ هذا في أمور الدين والدنيا. أرأيتم رجلا يريد أن يحصل مالًا وما زاد في سعيه لتحصيل المال إلا على الأماني؛ تمضي عليه الأيام وهو مغتبط بأماني لا يخرج منها إلا وهو صفر اليدين.

إذا تَمَنَّيْتَ بِتَّ اللَّيْلَةَ مُغْتَبِطًا   إِنَّ الْمُنَى رَأْسُ أَمْوَالِ المَفَالِيْسِ

---

(١) عن عبد الله بن عبد الرحمن التستري، قال: قال داود النبي صلى الله عليه وسلم: قل لصاحب العلم يتخذ عصا من حديد، ونعلين من حديد، ويطلب العلم حتى تنكسر العصا، وتنخرق النعلان. -باب الرحلة في طلب العلم، واحتمال العناء فيه- (حديث رقم: ٥٨٤) سنن الدارمي.

(٢) قال ابن القيم : «أجمع العقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة».[مفتاح دار السعادة]



الذي يريد أن يحصل مالا لابد أن يتعب، وأن يبطش وأن يسعى.

وكذلك أمور الآخرة، كذلك العلم. ولهذا جاء في الحديث «الصحيح» عن النبي ﷺ : «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اَللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى اَلْجَنَّةِ**». [رواه مسلم](1)

فالعلم يحتاج إلى سلوك السبل، وهذه السبل حسية ومعنوية؛ والسلف لهم قصص في بعد هممهم وفي شدة اجتهادهم في طلب العلم ربما ظُنَّت أنها من الأساطير.



(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، والترمذي (٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥) مطولاً، وأحمد (٨٣١٦) واللفظ له.



تتِمَّة تعليق البَيتِ السَّابق

قال النَّاظم :

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الْحِفْظَا [٦] وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا

وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبٌ [٧] مِمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الأَدِيبُ

التعليق

أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال :

«مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى ، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ بِهِ». [رواه البخاري ومسلم][1]

بعض شُرَّاح الحديث ذكروا؛ أن هذا الحديث اشتمل على ذكر قسمين :

❒ **القسم الأول** : **المشتغلون بالعلم**، والمشتغلون بالعلم قسمان :

▪ **قسم حظه من العلم الحفظ**؛ وهذا مثله في الحديث الأرض

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢) .



الجدباء التي تمسك الماء ولا تنبت شيئا؛ لكنها تمسك الماء فينتفع بها الناس. وهذا حافظ ليس عنده قدرة على بيان المعاني والفوائد وذكر الأحكام المستنبطة؛ لكنه قوي في الحفظ.

- **من يجمع بين الحفظ وبين الإستنباط**، وبين الإهتداء الى أسرار ما في النصوص من الفوائد والحكم. وهذا مثل الأرض الطيبة التي تمسك الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير.

وبعض أئمة الحديث كسفيان الثوري والشعبي رحمهم الله؛ رزقوا حفظا عجيبا واستحضارًا غريبًا مع العلم الغزير؛ حتى إن سفيان كان إذا مر بالأسواق أغلق أذنيه لأنه ما سمع شيئًا إلا حفظه. والشعبي كان يقول: «ما كَتَبْتُ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاء».[١]

❐ **القسم الثاني**: **غير مشتغلين بالعلم**؛ فهم مثل الأرض القيعان التى لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ؛ لا ينتفع الناس بها.

فطالب العلم لابد أن يُعنى بالفهم والتفهم مع الحفظ؛ فإن الفهم عن الله ورسوله هو منشور الولاية والعرفان. ولهذا جاء في الصحيح أن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لما سُئل: أخصكم معشر آل البيت النبي صلى الله عليه وسلم من دون الناس؟ قال: «**لَا؛ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيْهِ اللهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ**».

[رواه البخاري][٢]

(١) سنن الدارمي – ص (١/ ٤٢٨).

(٢) صحيح البخاري – ط السلطانية ٩/ ١٢ برقم (٦٩١٥).

وعن ابن عباس ﵄ أن عمر كان يدخله مع أشياخ بدر؛ وكان عمر ﵁ الملهم المحدث كما جاء في الحديث ؛ «**أَنَّهُ كَانَ فِي الْأُمَمِ قبلكُمْ مُحَدَّثُونَ؛ فَإِنْ يَكُن فِي أُمَّتِي أَحَد فَعُمَر**».[(١)]؛ مع ذلك كان عمر لما ولي الخلافة يجمع حوله كبار الصحابة ليستشيرهم، وليصدر عن أرائهم؛ موفَّق لماذا ؟ لأنه ضم عقولا إلى عقله.

قال : فدعاني يومًا ولم يدعوني إلا ليريهم أي يبين لهم فضل عقل ابن عباس ﵄ وفهمه. فسألهم عن قول الله ﷻ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ؛ فقال بعضهم : أُمرنا إذا جاء نصر الله والفتح أن نحمد الله وأن نستغفره. وقال بعضهم : ما ندري؛ وسكت بعضهم. فسأل عمر ابن عباس، قال : «**هُوَ أَجَلُ رَسُوْلِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ بِهِ رَبُّهُ**».[(٢)]

نعم؛ هو أجله؛ فهذه السورة تدل على قرب أجل رسول الله ﷺ؛ قال عمر ﵁ «**والله مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إلاَّ مَا ذَكَرْتَ**» أو كما جاء في الخبر.

هذا يدلك على فهم ابن عباس؛ وكيف أنه على صغر سنه استحق أن يكون من جملة أهل الشورى، وهذا الفهم له تعلق بالقرائن وبالسياق كما سيذكره الناظم.

(١) صحيح البخاري – ط السلطانية ٥/ ١٢ برقم (٣٦٨٩)

(٢) صحيح البخاري – ط السلطانية ٤/ ٢٠٤ برقم (٣٦٢٨)



البيت (١٠-١١)

قال النَّاظم :

وآخر يُعْطَى بِلا اجْتِهَادِ [١٠] حفظًا لما قَدْ جَاءَ في الإسنَادِ
يهذُّه بِالقَلْبِ لَا بِنَاظِرِهِ [١١] لَيْسَ بمضْطَرٍّ إلى قمَاطِرِهِ

التعليق

قوله : «وآخَرُ يُعْطَى بِلَا اجْتِهَادٍ»؛ أي موهبة من الله؛ عنده حافظة قوية. قال «لما قَدْ جَاءَ فِي الإِسْنَادِ»؛ والإسناد هو حكاية طريق المتن. قال ابن المبارك : «الإِسْنَادُ مِنَ الدِّيْنِ وَلَوْلَا الإِسْنَاد لَقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ»[١]. وفيه إشارة إلى أن ما ينبغي أن يُلِيَه طالب العلم العناية في الحفظ هو القرآن والسنة. عليك أن تبدأ بحفظ القرآن، وبحفظ ما استطعت من السنة.

وقوله : «يَهُذُّهُ» في كتب المعاجم؛ قالوا : هذَّ القرآن : أي أسرع في قراءته، وهذَّ الحديث؛ سَرَدَهُ، يسرده بلا احتياج إلى قراءة، بل غيبًا من حفظه. والحفظ هو الضبط؛ وهو أن تنطبع المعلومة في القلب؛ ولهذا قال بعض العلماء :

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَاوَى القِمَطْرُ مَا العِلْمِ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

---

(١) مقدمة صحيح مسلم: (١/ ٨٧)، المحدث الفاصل: (٢٠٩)، الضعفاء والمجروحين: (١/ ٢٦)، مقدمة ابن الصلاح: (١٣٠)

قال عبد الرزاق الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُلُّ عِلْمٍ لَا يَدْخُلُ مَعَكَ الْحَمَّامَ لَيْسَ بِعِلْمٍ»[١]؛ يريد أن كتب العلم لا يدخل بها الإنسان الحمام. فالعلم الذي يدخل معك الحمام هو العلم الذي يكون في قلبك وفي صدرك. ولهذا قال الرحبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالثُّلُثَانِ وَهُمَا التَّمَامُ فَاحْفَظْ فَكُلُّ حَافِظٍ إِمَامُ

والرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾؛ [العنكبوت :٤٩]. ومن الوجوه في تفسير هذه الآية؛ أن المراد بها أنه يُحفظ في صدور أهل العلم.

وجاء أيضا في الحديث المتواتر: «**نَضَّرَ اللهُ امراءً سَمِع مَقَالَتِي فَوَعَاهَا**؛» أي حفظها. [رواه الترمذي][٢]

و«القَمَاطِر» جمع قِمَطْر؛ وهو الصندوق الذي توضع فيه الكتب.

وحفظ العلم مهم جدًا، جاء في «صحيح مسلم» من حديث عمرو بن أخطب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه ذكر خطبة رسول الله ﷺ الطويلة؛ فإنه صلى بهم الفجر، فخطبهم إلى الظهر وصلى بهم الظهر، فخطبهم إلى العصر وصلى بهم العصر فخطبهم إلى المغرب؛ ثم قال عمرو بن أخطب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥٠)

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢) واللفظ له، وأحمد(٤١٥٧)



«**فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا**».[١]

فالحفظ من أهم مراتب العلم؛ والإمام البخاري ﵀ في «صحيحه» عقد في كتاب العلم (باب حفظ العلم)؛ وأسند فيه ثلاثة أحاديث؛ ولم يسند إلا عن أبي هريرة. فذكر الحافظ ابن حجر ﵀ أن البخاري لعله لم يسند في هذا الباب حديثًا إلا من طريق أبي هريرة ﵁؛ ليشير إلى تميُّز أبي هريرة عن غيره في الحفظ.

وأبو هريرة لما كان يستنكر عليه الناس في الرواية والحفظ؛ يذكر لهم أن الصحابة منهم من شغله العمل في زرعه، وهؤلاء الأنصار؛ ومنهم من شغلهم الصفق بالأسواق؛ وهؤلاء المهاجرون. قال: «**أَمَّا أَنَا فَلَزِمْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ عَلَى شِبْعِ بَطْنِي؛ فَكُنْتُ أَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُوْنَ وَأَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُوْنَ**».[٢]

هذا أبو هريرة حافظ الصحابة؛ فطالب العلم لا بد أن يتفرغ لطلب العلم، ولابد أن يتوفر على تحصيله، ولابد أن يصبر على الفقر. فأبو هريرة ﵁ كان يصيبه الجوع؛ حتى يخر مغشيًا عليه من الجوع.

---

(١) صحيح مسلم - ت عبد الباقي (٤/ ٢٢١٧) برقم (٢٨٩٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٧٠٨) و(١١٨)

البيت (١٢)

قال النَّاظم:

فالتَمِسْ العِلْمَ وَأَجْمِلْ في الطَّلَبِ [١٢] والعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالأَدَبِ

التعليق

قوله: «التَمِسِ العِلْمَ»؛ أي اطلب العلم، وأجمل في طلب العلم.

وقد جاء في الحديث الذي صححه العلامة الألباني ورواه الحاكم في «المستدرك»؛ أن النبي ﷺ قال: «**فَأَجْمِلُوْا فِي الطَّلَبِ**»[١]؛ وإن كان سياق الحديث فيما يتعلق بالرزق، وبكسب المال فإنه يمكن أن يُوظف معناه في الطلب للعلم؛ فأجملوا في الطلب، أي: اطلبوا طلبًا جميلا.

إنما يكون طلبك للعلم جميلا؛ إذا أردت به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإنك إن أردت بطلب العلم أن تتبوأ مكانة كبيرة، أو أن تكون منظورًا إليه، وأن يرجع اليك الناس وأن يشيروا إليك -فلان عالم-!!؛ فإنك قد أوبقت نفسك وأهلكتها.

وأيضا من ذلك؛ أنك تدل غيرك على الفوائد؛ وعلى أماكنها ومصادرها. لا تقول: أنا لا أُفيد غيري حتى لا يدركني أحد؛ أو إذا

---

(١) أخرجه الحاكم (٢١٣٤) واللفظ له، وأخرجه ابن ماجه (٣٢٣٩)، وابن الجارود في «المنتقى» (٥٥٦) باختلاف يسير



وجدت شيخًا مستفيدًا حاولت أن لا يهتدي إليه غيرك؛ أو إذا وجدت فائدة نفيسة في كتاب علم لم تذكرها لأصحابك ولإخوانك؛ لا!! بل تنفق وتنشر الخير لينتفع غيرك.

وقوله : «وَالْعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ» ؛ أيضا لا بد أن تتأدب بالعلم؛ هذا أيضا من الطلب الجميل. وهذا حق؛ والأدب كما قال ابن القيم رحمه الله : «هُوَ إجتِماعُ خِصَالُ الخير في العَبْدِ».[1]

وأعلى الأدب؛ أن تقتدي برسول الله ﷺ؛ ولهذا كانوا يذكرون في كتب الحديث، في آداب طالب الحديث؛ أن يحرص على العمل بأحاديث النبي ﷺ.

فطالب العلم لابد أن يكون متميزًا عن غيره من المسلمين، أن يكون متميزا بهيئته، وبسمته، ودله، وأدبه، وهدوئه. فالعلماء قالوا : «عِلْمٌ بِلَا آدَبٍ كَنَارٍ بِلَا حَطَبٍ». والنار إذا لم تمد بالحطب، تخمد وتموت ولا يكون لها فائدة.

وكان السلف يوجهون أبنائهم وطلابهم إلى تلقي الأدب قبل العلم. وكان بعض العلماء يلزم شيخا لا ليأخذ من علمه، بل ليأخذ من أدبه.

(١) مدارج السالكين – ط عطاءات العلم ٣/ ١٤٠ — ابن القيم (ت ٧٥١)

البيت (١٣-١٤)

قال :

والأَدَبُ النَّافِعِ حُسْنُ السَّمْتِ [١٣] وفي كثِيْرِ القَوْلِ بَعْضُ المَقْتِ

التعليق

هذا الأدب الذي حث عليه طالب العلم هو حسن السمت.

وقد روى الإمام الترمذي وصححه العلامة الألباني؛ أن النبي ﷺ قال: «**خَصْلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ؛ حُسْنُ سَمْتٍ، وَفِقْهٌ فِي الدِّيْنِ**».[١]

ومن حسن السمت؛ تزكية النفس؛ قال ﷻ في كتابه العزيز :

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ [الجمعة : ٢]. فتزكية النفس، هي تطهيرها وتهذيبها من رذائل الأخلاق ومساوئ الأعمال؛ حتى تكون زكيًا، طيبًا، صالحًا. والسلف كانوا يأخذون عن علمائهم حسن السمت؛ السمت هو الهيئة والوقار والسكينة في الكلام وفي النظر وفي المشي.

قال الله ﷻ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ ؛[الفرقان : ٦٣]. هذا كله من السمت؛ فالسمت هو الهيئة والسكينة والوقار.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٤)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (٢/ ٢٤) واللفظ لهما، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨٠١٠) باختلاف يسير .



وفي «سنن الترمذي» أن بعض التابعين قالوا لحذيفة ابن اليمان؛ قالوا له: دلنا على أقرب الناس سمتًا ودلاً من رسول الله ﷺ؛ فأرشدهم إلى ابن مسعود رضي الله عنه.(١)

من حسن السمت؛ أن يكون حرصه على السماع أعظم من حرصه على الكلام. وسيأتي -إن شاء الله- شيء من النصوص فيما يتعلق بالسمت.

وقوله: «وفِي كَثِيْرِ القَوْلِ بَعْضُ المَقْتِ»؛ يقول: كثرة الكلام مجلبة للبغضاء، لأن من كثر كلامه كثر خطأه، وكثر تعديه على الناس.

❊ ❊ ❊

فكُنْ لحسْنِ السَّمْتِ، مَا حَيِيْتَا [١٤] مُقَـــارِفًا تُحْمَدُ مَا بَقِيتَا

قوله: «فَكُنْ لحُسْنِ السَّمْتِ مَا حَيِيْتَا»؛ مدة حياتك مقارفا، أي متصفا. قال «تُحْمَدُ مَا بَقِيْتَا»؛ فإن من كان حسن السمت متأدبًا بآداب العلم، متأسيا بالنبي ﷺ؛ حمده الناس، وأثنوا عليه. بينما الذي لا يتأدب بآداب رسول الله ﷺ ولا يكون معروفًا بحسن السمت؛

(١) عن عبد الرحمن بن يزيد، قال: أتينا على حذيفة، فقلنا: حدثنا بأقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم هديا ودلا فنأخذ عنه ونسمع منه؟ قال: «كان أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود حتى يتوارى منا في بيته».. [سنن الترمذي برقم ٣٨٠٧]

يبغضه الخلق، ويشنئونه، ويكرهونه. كما جـــاء في الحديث : «**إِنَّ مِنْ شَرِّ اَلنَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اَللهِ يَوْمَ اَلْقِيَـامَةِ مَنْ تَرَكَهُ اَلنَّاسُ اِتِّقَاءَ فُحْشِهِ**».

[رواه البخاري] [١]

وبعض الناس ربما أمتعك بحسن الحديث، فإذا ما فارقته لدغك لدغة العقارب؛ وذلك كما في البيتين الذين استشهد بهما العلامة ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «حلية الطالب العلم» :

يَلْقَـاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِـــكَ وَاثِقٌ … فَإِذَا تَوَارَى مِنْكَ فَهُوَ العَقْرَبُ

يُعْطِيْكَ مِنْ طَرْفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً … وَيَرُوْغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوْغُ الثَّعْلَبُ

(١) صحيح البخاري (٦٠٥٤) ومسلم (٢٥٩١) باختلاف يسير



البيت (١٥-١٧)

وَإِنْ بَدَتْ بَيْنَ الأَنَامِ مَسْـأَلَةْ [١٥] مَعْرُوفَةٌ فِي العِلْمِ أَوْ مُفْتَعَـلَـةْ
فَلَا تَكُنْ إِلى الجَوَابِ سَابِقًـا [١٦] حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيْهَا نَاطِقًـا
فكَمْ رَأَيتُ مِنْ عَجُوْلٍ سَابِقْ [١٧] من غَيْرِ فهْمٍ بالخَطَإِ نَـــاطِقْ

التعليق

قوله : «مُفْتَعَلَة» من معاني هذه الكلمة؛ مختلقة وكذلك محدثة؛ والأقرب أن المراد بها هنا : محدثة، أي غير معروفة. والمعنى؛ أنه إذا ذكرت مسألة فلا تعجل بالخوض فيها وبالكلام عنها؛ بل عليك أن تتأنى وأن تصبر، وأن تمكن الجميع من أن يذكروا ما عندهم؛ فإذا ذكر كل واحد ما عنده نظرت في أقوالهم، وذكرت ما تقرر عندك ما دل عليه برهان؛ فذكرت صفوة القول، فإياك أن تتعجل.

ذكر ابن القيم رحمه الله في كتاب [إعْلَامُ الموقِّعِين] ؛ أن السلف من الصحابة ومن جاء بعدهم كانوا يتدافعون الفتوى، وودَّ كل واحد منهم أن يكفيه أخوه؛ يعرض السؤال فيرده هذا إلى هذا. وقد قالوا : «مَنْ تَأَنَّى نَالَ مَا تَمَنَّى». لكن الذي يتعجل في الغالب يقع في الخطأ.

ومن الأسف؛ الذي في قلوب كثير منا؛ أننا نحب أن نُعرف بالعلم، فإذا ذكرت مسألة بادرنا بالجواب حتى نظهر ما عندنا من

علم -[إلا من رحم الله]-. فالأمر يحتاج إلى مجاهدة للنفس، والمقصود أن يظهر الحق، وأن يُتكلم بالعلم. وليس المقصود أن يظهر الحق من قبَلنا.

ولهذا كان الشافعي ﵀ يقول: «وَدِدْتُ أَنَّ النَّاسَ تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْمَ وَلَا يُنْسَبُ إِلَيَّ شَيْءٌ مِنْهُ أبدًا؛ فَأُوجرُ عَلَيْهِ وَلَا يَحْمَدُوْنِي»(١)؛ وهذا من الدلالة -إن شاء الله تعالى- على إخلاصه.

(١) آداب الشافعي ومناقبه (١/ ٢٤٨) - ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧) والإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٥/ ٤٩٩) - الأمير ابن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩) وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٦٩) - ابن عبد البر (ت ٤٦٣) ومناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٢٥٨) - أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨).



البيت (١٨-٢١)

أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ [١٨] عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالتَّنَافُسِ

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ [١٩] مَـالِي بِمَا تَسْـــأَلُ عَنْهُ خُبْرُ

فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَا [٢٠] كَـذَاكَ ما زَالَتْ تَقُولُ الْحُكَمَا

التعليق

ومن جملة هذه الآداب أنه يجب على طالب العلم وعلى العالم إذا سئل عن مسألة لم يسبق له علم بها؛ أن يجيب بقول : لا أدري أو الله أعلم؛ ولا يستنكف عن ذلك.

فقد كان السلف الماضون إذا سُئلوا عن مسألة شرعية عرضوا أنفسهم بين الجنة والنار. لأن من أقدم على الجواب عن مسألة شرعية من غير علم فقد وقَّع عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مدعيًا ومفتريًا. فالرب ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾. [الإسراء : ٣٦]

وقوله : «وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ»؛ أعياك يعني أعجزك «ذاك الأمر»؛ يعني الذي سُئلت عنه «مَا لِي بِمَا تَسْأَل عَنْهُ خُبْرُ» أي لا خبر لي، ولا معرفة لي بما تسأل عنه. مثل هذا الجواب يرفع من قدرك عند

المنصفين؛ ولا تهتم بأصحاب الجهل والسفه؛ ورُبَّما رموك بالجهل واحتقروك.

رُوي أن رجلا جاء من مكان بعيد إلى إمام أهل المدينة في زمانه الإمام مالك رحمه الله ؛ جاءه محمَّلا بمسائل من قومه الذين وفد منهم؛ ذكروا أن المسائل التي عرضت على الإمام مالك تزيد عن أربعين مسألة. فأجاب الإمام مالك عن ثلاث وثلاثين مسألة بقوله : لا أدري. فتعجب منه الشاب وأخبره بحيرته، ماذا يقول لقومه؛ قال : قل لهم سألت مالكًا فقال : لا أدري.[1]

يقول محمد ابن عجلان رحمه الله : «إِذَا أَغْفَلَ العَالِمُ لَا أَدْرِيْ أُصِيْبَتْ مَقَاتِلُهُ».[2] ولهذا قال الشاعر :

فَمَنْ كَانَ يَهْوِى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّرًا ويَكْرَهُ لَا أَدْرِي أُصِيْبَتْ مَقَاتِلُهُ

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه كما في «صحيح البخاري» : «**أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ لَا أَعْلَمُ؛ فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ تَقُوْلَ لِمَا لَا تَعْلَمُ اللهُ أَعْلَمُ**».[3]

ولهذا قال الله عز وجل مخاطبا لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ :﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

(١) صيد الخاطر (١/ ٢٢٠) - ابن الجوزي (ت ٥٩٧)

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٤٠) وأخلاق العلماء للآجري (١/ ١١٦) - الآجري (ت ٣٦٠)

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨) باختلاف يسير



﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾؛ [ص: ٨٦]. فأنت منهي عن التكلُّف؛ ثم إياك أن تتكلف الجواب عما لا تعلم.

قال: «فَذَاكَ شَطْرُ العِلْمِ عِنْدَ العُلَمَاء ... كَذَاكَ مَا زَالَتْ تَقُوْلُ الحُكَمَاءُ» يقول؛ إن الحكماء لم يزالوا يقولون: الله أعلم شطر العلم. وهذه الكلمة؛ ذكرها السخاوي رحمه الله في كتابه [المَقَاصِدُ الحَسَنَةُ فِيمَا اشْتَهَرَ مِنَ الأحَادِيثِ عَلى الأَلْسِنَةِ]. وذكر أن هذا المروي؛ لا أدري نصف العلم، أو لا أعلم، أو الله أعلم؛ نصف العلم؛ أنها لا أصل لها عن النبي ﷺ.

ثم ذكر أنها رواها الدارمي عن عامر ابن شراحيل الشعبي؛ وذكر أيضا أنها نسبت إلى أبي ذر وإلى أبي الدرداء؛ لكنها أسندت عن الشعبي وهذا حق؛ لا أعلم نصف العلم. وقد وجه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» كون هذه الكلمة نصف العلم.

وجاء عن بعض سلفنا أنه قال: «يَنْبَغِي لِلعَالِمِ أَنْ يُوَرِّثَ جُلَسَاءه لَا أَدْرِيْ».[1]؛ وروي أن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه سئل عن مسألة فقال: «**لا أعلم**». ثم قال: «**مَا أَبْرَدَهَا عَلَى الكَبِدِ هَذِهِ الكَلِمَة**».[2]

(١) الفقيه والمتفقه - الخطيب البغدادي (٢/ ٣٦٧) وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (١/ ٤٢) - البدر ابن جماعة (ت ٧٣٣)

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٣٦)

فَإِن جَهِلْتَ مَا سُئِلْتَ عَنْهُ   ولَــمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْــهُ

فَلَا تَقُــــلْ فِيْهِ بِغَيْرِ فَهْمِ   إِنَّ الخَطَــأَ مُزْرِءٌ بِأَهْلِ العِلْمِ



البيت (٢١)

وَالصَّمْتُ فَاعْلَمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ [٢١] إِنْ لَـمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

التعليق

وقوله : «إِنْ لَـمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ» ؛ العلم المتقن هنا هو العلم المستند إلى دليل الذي يجزم به صاحبه ولا يتردد فيه. فكان الخطيب البغدادي ؒ ؛ هذا العالم الكبير، كان لا يجيب إلا عن سؤال مكتوب؛ فيكتب له السؤال ثم يراجع كتبه ويبحث ثم يجيب.

وكثير من العلماء يُسألون فيستمهلون السائل، أي يسألونه المهلة. إذًا؛ لا تجب أيها الطالب إلا عن ما عندك فيه علم أنت فيه جازم ولست مترددًا. فهذا الراجز يحضك على أن تصمت عن الخوض فيما لا تعلم. فإياك أن تخوض فيما لم تتبينه ولم تتحقق منه.

فتفصيل القول في الكلام والصمت يستفاد مما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال : «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللهِ وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**». [أخرجه البخاري][1]

وهذا الحكم الذي علق بمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ هو من باب تعليق الحكم بما يستدعي الامتثال، وبما يقتضي العمل؛ فإن من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨)



آمن بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وآمن بالبعث وأنه محاسب، فإن إيمانه بالله واليوم الآخر يحجزانه عن مخالفة الشرع.

والخير هنا ما يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ إما أن يكون خيرًا لذاته، كأن يكون دعوة أو أمرا بالمعروف أو نهيًا عن المنكر، أو تذكيرا للغافل وتعليما للجاهل. وقد يكون خيرًا لثمرته؛ فإن النبي ﷺ يقول: «**الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**»(١)؛ ومما يدخل في الكلمة الطيبة؛ أن تدخل سرورا على قلب أخيك المسلم، فإذا رأيت أخاك مُبتَئِسا ومهموما فكلمته بما يروح عنه؛ فكان هذا مما تثاب عليه بالنية الصالحة. ما عدا ذلك فليقل خيرًا أو أو ليصمت.

ولهذا قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا عُرِضَ لَكَ كَلَامٌ فَلْتَنْظُرْ فِيْهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا مَحْضًا تَكَلَّمْتَ بِهِ، وَإِنْ تَرَدَدْتَ أَمْسَكْتَ». اهـ

فكيف إذا تكلم بالكلام الباطل، كالغيبة، والنميمة، وكسبِّ الناس وشتمهم!. إذًا؛ هذا هو فيصل القول بين الصمت والكلام.

ولهذا قال بعض العلماء ونقلها ابن القيم: «المُتَكَلِّمُ بِالبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ وَالسَّاكِتُ عَنِ الحَقِّ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ».(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩)

(٢) الداء والدواء -ط دار المعرفة (١/ ١٦١) وإعلام الموقعين عن رب العالمين - ط العلمية (٢/ ١٢١)



وجاء في مسند الإمام أحمد وصححه العلامة الألباني رحمه الله عن عبد الله ابن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**مَنْ صَمَتَ نَجَا**»؛.[1]

وجاء أيضا في أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه ؛ أنه قال : «قُوْلُوْا خَيْرًا تَغْنَمُوا واسْكُتُوْا عَن شَرٍّ تَسْلَمُوْا».[2]



(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، وأحمد (٦٤٨١)

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم – ط العلمية (٤/ ٣١٩) – أبو عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥) ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ٢٩٩) – نور الدين الهيثمي (ت ٨٠٧)

البيت (٢٢-٢٣)

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَا [٢٢] وَاحْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خَطَائِكَا

التعليق

قال: «إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَا»؛ هذا من أسلوب التحذير؛ فالعجب وهو داء خطير؛ من أخطر الأمراض التي تعرض لطلبة العلم. فإن الشيطان لا يزال بالمرصاد؛ للمسلم وطالب العلم.

فطالب العلم إذا حصَّل وبرز على الأقران؛ ربما أصيب بالعجب؛ فما هو العجب!؟ يقول عبدالله بن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن العجب: «أن تَرَى أَنَّ عِنْدَكَ مَا لَيْسَ عنْدَ غَيْرِكَ»[١]؛ هذا من أقوى ما قيل في تعريف العجب.

وجاء في الحديث الذي رواه البيهقي وصححه العلامة الألباني؛ أن النبي ﷺ قال: **«ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٍ، شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»**.[٢]؛ فإعجاب المرء بنفسه يهلكه ويوبقه.

ونقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «مدارج السالكين» أنه كان يقول: «أَنَا لَسْتُ بِشَيْءٍ وَمَا مِنِّي شَيْء؛ وإني إِلَى الآنَ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٧)

(٢) أخرجه مطولاً البزار (٦٤٩١)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (٣/ ٤٤٧) باختلاف يسير، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤٥٢) واللفظ له. البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٢٥٢)



أُجَدِّدُ إِسْلَامِي، وَمَا أَسْلَمْتُ إِسْلَامًا صَحِيْحًا».[1] أو نحو هذه العبارات. فتأمل عظيم تواضع شيخ الإسلام وهضمه لنفسه مع علو كعبه في العلم والعمل.

وجاء رجل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فقال : يا إمام جزى الله عنك الإسلام خيرًا. فقال : «مَنْ أَنَا ؟ بَلْ جَزَى اللهُ الإسلامَ عَنِّي خَيْرًا».[2]

الآن بعض الظلمة الذين يترشح من كلامهم الكبر؛ أخشى أن لو قيل له هذا : جزاك الله عن المنهج خيرًا؛ أخشى أن يقول في باطن نفسه؛ -اللهم آمين-. لكن هذا إمام أهل السنة؛ الذي قال عنه علي ابن المديني : «إِنَّ اللهَ حَمَى الإِسْلَامَ بِالصِّدِّيْقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ وَبِأَحْمَدَ يَوْمَ المِحْنَةِ».[3] يقول ما يقول.

فالإنسان يرد الفضل إلى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الذي يُعلم هو الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وليس بذكائنا ولا بجدنا ولا جُهــدنا. وروى البـــيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شُعَبُ الإِيْمَانِ»؛ بإسناده عن أبي العتاهية أنه أنشد :

---

(١) انظر مدارج السالكين - ط الكتاب العربي (١/ ٥٢٠)

(٢) انظر مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (١/ ٣٦٨) وسير أعلام النبلاء - ط الرسالة (١١/ ٢٢٥) - شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨)

(٣) انظر طبقات علماء الحديث (٢/ ٨٣) — ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤) مسند أحمد - ت شاكر - ط دار الحديث (١/ ٧٤) - أحمد بن حنبل (ت ٢٤١) طبقات الحنابلة - لابن أبي يعلى - ت الفقي (١/ ١٣) - ابن أبي يعلى (ت ٥٢٦)



إِنْ كَانَ يُعْجِبُكَ اَلسُّكُوت   فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ يعْجِبُهُ قَبْلَكَ اَلْأَخْيَارا[1]

❊ ❊ ❊

ثم قال ناظم هذه الأرجوزة :

كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَعْقَبَ النَّدَامَةَ   [٢٣]   فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ

«كَمْ» هنا خبرية للتكثير؛ أي كم من إنسان أجاب عن سؤال فندم على جوابه. فالسلامة في الصمت إلا إذا تحققت العلم وتبينته؛ ولربما زرع الكلام عداوة وضرارًا، فهذا حق.



(١) شعب الإيمان – ط الرشد (٧/ ٩١)



البيت (٢٤-٢٦)

ثم قال الناظم :

الْــــعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ [٢٤] لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَـــــدُ
وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ قَدْ حَوَيْتَهُ [٢٥] أَجَلْ وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ
وَمَـــا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ [٢٦] مِمَّـــا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ

التعليق

هذا الكلام نفيس للغاية؛ «الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ»، وبعض العلماء قالوا : «العِلْمُ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ». هذا الكلام له فوائد :

- أن يجتهد في تحصيل العلم، وأن يستمر في الإستزادة من العلم.
- أن يعلم قصور نفسه؛ فإنه مهما حصل من علم؛ فإن العلم بحر لا ساحل له.
- أنه إذا عرضت عليه مسألة فلا يثق بنفسه وبعلمه؛ فيتكلف الجواب فيهلك، فالعلم بحر لا ساحل له.

والعلامة ابن عثيمين ﵀ في مقدمة «منظومة الأصول والقواعد» يقول :

وَبَعْدُ؛ فَالْعِلْمُ بُحُورٌ زَاخِرَةٌ لَا يَبْلُغُ الكادِحُ فِيهِ آخِرَهُ

ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾ ؛ [الإسراء : ٧٥].

وقوله : «وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ قَدْ حَوَيْتَهُ ... أَجَلْ وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ»؛ أي ؛ أنت لم تحوِ جميع العلم؛ بل ولا العشر من العلم.

ذكروا أن إسماعيل بن محمد اجتمع مع الزهري في مجلس سليمان ابن عبدالملك الخليفة الأموي؛ فحدث إسماعيل بن محمد بإسناده عن جدِّه سعد بن أبي وقاص؛ أن النبي ﷺ ؛ «**كَانَ يُسَلِّمُ عَنْ يَمِينِهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدِّهِ الأَيْمَنِ، ويُسَلِّمُ عَنْ يَسَارِهِ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ خَدِّهِ الأَيْسَر**». فقال الزهري : لم يسمع هذا الخبر من حديث رسول الله ﷺ قال إسماعيل : كل حديث النبي ﷺ سمعته؟ قال : لا؛ قال : فالثلثين قال : لا قال : فالنصف قال : لا؛ قال : فهو من النصف الذي لم تسمع.[1] اهـ

فإذا علم الإنسان أن العلم بحر لا ساحل له؛ وأن الذي حصله منه نزر يسير، دفع ذلك عنه العجب. وهؤلاء يتكلمون عن الأكابر؛ لمن يحفظ مائتي ألف حديث، أو من يحفظ ألف ألف وكذا؛ مما ذكر في ترجمة الإمام أحمد، وفي ترجمة الإمام البخاري وأبي زرعة وغيره من الحفاظ الأكابر؛ فكيف بأمثالنا نحن؟.

ولهذا فالموفق لا يزال يطلب العلم؛ ولابد أن يقرن مع طلب العلم التعبد؛ فإن العلم لا يراد لذاته أصلا.

---

(١) انظر «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (٥/ ٣٣٢) برقم (١٩٩٢) للأمير ابن بلبان الفارسي



وقال: «وَمَـــا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ ... مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَعْثُرُ»؛ يعثر يعني: يسقط؛ الفرس الأصيل قد يعثر. فيه إشارة؛ أن العالم قد يخطئ. ولهذا قالوا: «لِكُلِّ صَارِمٍ نَبْوَة وَلِكُلِّ جَوَّاد كَبْوَة وَلِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَة».[1]

فعليك أن توطن نفسك على أن أكبر العلماء قد يصيبه الوهم، وقد يصدر منه الخطأ. وهذا مما يخلصك من أن تأسرك محبة بعض العلماء؛ فتقلدهم وتتابعهم على أخطائهم.



(١) جمهرة اللغة (٢/ ٩٧٣) - ابن دريد (ت ٣٢١) العقد الفريد (٣/ ١٩) - ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨).



البيت (٢٧-٢٨)

ثم قال :

فَكُنْ لِمَا سَمِعْتَهُ مُسْتَفْهِمَـا [٢٧] إِنْ أَنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا

الْقَوْلُ قَوْلَانِ فَقَوْلٌ تَعْقِـلُهُ [٢٨] وَآخـَرٌ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَـلُهُ

التعليق

هذا من أداب طالب العلم في طلبه للعلم؛ وهو حسن الإستماع؛ ثم حسن الفهم. ربما الذي تسمعه أو تقرأه؛ يكون مما لم تعقله. وهذا الذي لا تعقله قد يكون السبب لقصور في المتكلم، أو لقصور في السمع فيك أنت. وهذا قد يوجد عند المتأخرين؛ فإنهم ربما عبروا بعبارات في فهمها عسر، أو عبروا بعبارات مغلقة؛ فتصعب عليك في فهمها.

وهذا الكلام في غاية الأهمية؛ الذي فهمته فإنك تحمد ربك ﷻ؛ وما لم تفهمه فإنك تستفسر عنه؛ وتسأل عنه، حتى تصل إلى فهمه. وإياك أن تستحي؛ فإنه لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر. بل إذا لم تفهم قلتَ : فهّمني هذا الكلام.

جاء في «الصحيحين» عن أُمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : «**ليسَ أَحَدٌ يُحاسَبُ يَومَ القِيامَةِ إلَّا هَلَكَ؛ فَقُلْتُ : يا رَسولَ اللهِ، أليسَ قدْ قالَ**



اللهُ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ ﴾ **فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : «إِنَّما ذَلِكِ العَرْضُ، وليسَ أَحَدٌ يُناقَشُ الحِسابَ يَومَ القِيامَةِ إِلَّا عُذِّبَ»**.(١)

فأمنا عائشة رضي الله عنها لما سمعت هذا الكلام من النبي ﷺ ؛ استفهمت وذكرت آية؛ وأجابها رسول الله ﷺ. إذاً أيها الطالب؛ إذا لم تتبين وتفهم شيئًا فعليك أن تسأل عنه.



(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦)

البيت (٢٩-٣١)

ثم قال:

وَكُـــلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابٌ [٢٩] يَجْمَعَهُ الْبَـــاطِلُ وَالصَّوَابُ

وَلِلْكَـــلَامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ [٣٠] فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

لَا تَدْفَعِ الْقَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ [٣١] حَتَّى يُؤَدِّيَكَ إِلَى مَـــا بَعْدَهُ

التعليق

قوله: «وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابٌ»؛ وذلك أن هذه الشريعة من خصائصها، أنها شريعة كاملة وبينة. قال الله ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ (النحل: ٨٩). وهي حق كلها؛ أما كلام العلماء فمنه الصواب ومنه الخطأ، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلا رسول الله ﷺ؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله.

وقوله: «فَافْهَمْهُمَا وَالذِّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ»؛ أراد بالذهن هنا؛ العقل.

وقال: «لَا تَدْفَعِ الْقَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ ... حَتَّى يُؤَدِّيَكَ إِلَى مَا بَعْدَهُ»؛ يعني أن الكلام يتبين بسياقه وبتمامه؛ فانظر إلى الكلام وفي سياقه، والسياق هو نظام الكلام الذي يؤثر في المدلول من معانيه.



ولهذا العلماء قالوا : «الكلام له سباق، ولحاق، وسياق». وهذا كله مؤثر في فهم المعنى. ثم هذا الناظم ينصحك أن لا تعجل؛ أي إذا سمعت كلاما فلا تعجل؛ إذا ظننت أن ما سمعته اشتمل على باطل؛ فانتظر، وتمهل حتى تسمع ما بعده. فربما رفع عنك الإشكال الذي نشأ في ذهنك. وهذا يقع لنا كثيرًا؛ نسمع طرفًا من كلام فنستنكر، لكننا لو تمهلنا وانتظرنا حتى يتم الكلام تبين المقصود.



البيت (٣٢-٣٥)

قال :

فَرُبَّمَا أَعْيَى ذَوِي الْفَضَائِـــلِ [٣٢] جَـوَابُ مَا يَلْقَى مِنَ الْمَسَــائِلِ
فَيُمْسِكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ [٣٣] عِنْدَ اعْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

التعليق

«أَعْيَى» أي عجز ؛ فإذا عجزت عن جواب مسألة في العلم؛ فلا يصيبك القنوط، ولا تحكم على نفسك بالإفلاس العلمي. فإن هذا الراجز يقول : «إِنَّ ذَوِي الفَضَائِل» ؛ أي من العلماء ربما أعياه جواب بعض المسائل؛ وهذا حاصل. وتأدب بآداب هؤلاء العلماء، فإذا رأيت مسألة ليس عندك عنها جواب متقن؛ فلا تجب بالظن؛ بل أمسك، واصبر، وابحث، وراجع.

فقد ذُكر أن الإمام مسلم مات رحمه الله بسبب بحث له عن حديث؛ وكانت أمامه سلة فيها تمر، فجعل يراجع الكتب، يبحث ويأكل؛ فكان ذلك سببا في موته.[1] ومن العلماء من طعن في ثبوت هذه القصة فلتراجع.

والشيخ محمد الآمين الشنقيطي رحمه الله؛ كان يدرس بعض متون مذهب المالكية عند شيخه، فقرأ عليه مسألة وشرحها، لكنه لم يشفه في

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» جـ(١٢)، صـ(٥٦٢: ٥٧٩)، طبعة مؤسسة الرسالة، سنة (٢٠٠١) م



الشرح ذلك اليوم؛ فرجع وأوقد النار وأحضر الكتب وجعل يراجع، ويراجع؛ وينظر إلى أن طلع الفجر، وأذَّن المؤذن؛ وقد قتل المسألة؛ بحثًا، وشفى نفسه.

ثم قال الناظم :

وَلَوْ يَكُـــونُ الْقَوْلُ فِي الْقِيَــاسِ [٣٤] مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَــــاءَ عِنْدَ النَّاسِ

إِذًا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبِ [٣٥] فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبِ

الإشارة إلى قول منشور وحكمة شائعة؛ وهي قولهم : «إذا كان الكلام من فضَّة فالسُّكوت من ذهب». وهذا الكلام ليس على إطلاقه؛ إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب؛ إنما يكون السكوت من ذهب إذا كان سكوتا عن باطل أو مالا فائدة فيه. أما الكلام بالخير فخير.وإلا فالفيصل ما ذكرنا سابقًا من حديث ؛ «**مَنْ كان يُؤْمِنُ بِالله وِاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**».[1]

* * *

هذا ما أردنا بيانه من هذه الأرجوزة المفيدة بإختصار من غير إسهاب وإطالة؛ والحمد لله رب العالمين.

(١) خرجناه في ص ٤٣



فِهرِس